محاضرات الدكتور يوسف القرضاوي (١)

لماذا الإسلام ؟

مؤسسة الرسالة
ناشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

غاية في كلمة

للطباعة والنشر والتوزيع

وطن المتنبي
شارع حبيب أبي شهلا
بناء السكر
هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٨١٥١١٢
فاكس: ٨١٨٦١٥ (٩٦١)
ص.ب: ١١٧٤٦٠
بيروت - لبنان

Resalah Publishers

Tel: 319039 - 815112
Fax: (9611) 818615
P.O.Box: 117460
Beirut - Lebanon

Email:
resalah@resalah.com

Web Location:
Http://www.resalah.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الثانية

١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

حقوق الطبع محفوظة ©١٩٩٥م. لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكّن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه. ولا يسمح باقتباس أي جزء من الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شاء ربنا من شيء بعد .

والصلاة والسلام على من أرسله الله رحمة للعالمين وهادياً للناس أجمعين ، بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً . سيدنا وإمامنا وحبيبنا محمد ، وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته ، واهتدى بسنته إلى يوم الدين.

أما بعد :

ففى أواخر التسعينيات من القرن الرابع عشر الهجرى ، وأواخر السبعينيات من القرن العشرين الميلادى ، أقام اتحاد الطلبة المسلمين فى أمريكا وكندا مؤتمرهم السنوى ، الذى تعودوا أن أشاركهم فيه لعدة سنوات ، ولكن لم أتمكن من السفر إليهم ذلك العام ، فطلبوا إلىّ أن أسجل لهم كلمة تسمع ، أساهم بها من بعيد فى هذا اللقاء ، الذى كان محوره وعنوانه : (لماذا الإسلام ؟) وقد يسر الله تسجيل هذه الكلمة وإرسالها إليهم فى شريط ، وقد تفضل بعض الإخوة فأفرغها على الورق لتقرأ ، ونشرت فى أحد مجلدات الموسم الثقافى لجامعة قطر (ثمار الفكر) .

وهاهى الدار المتحدة ، و مؤسسة الرسالة تنشرانها من جديد ، توسيعاً لدائرة الانتفاع بها ، وعسى أن تتبعها إن شاء الله محاضرات أخرى ألقيت فى أقطار شتى ، ومناسبات مختلفة ، وموضوعات متنوعة ، ولكنها كلها تدور حول (الإسلام) ودعوته وصحوته وما تعانيه من أدواء ، وما يوصف لها من دواء، وما يكاد لها من عدوها، منه وما تسىء به هى لنفسها .

ولا أقول هنا إلا ما قاله نبى الله شعيب من قبل : ﴿ **إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب** ﴾ (١) .

القاهرة : ربيع الأول سنة ١٤١٣هـ

سبتمبر سنة ١٩٩٢م

الفقير إلى ربه

يوسف القرضاوى

---

(١) هود : ٨٨

لماذا الإســـــلام ؟

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته واهتدى بسنته وجاهد جهاده إلى يوم الدين. ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً، ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب، اللهم علّمنا ماينفعنا، وانفعنا بما علّمتنا، وزدنا علماً. نحمدك اللهم على كل حال، ونعوذ بك من حال أهل النار.

وأحييكم أيها الأخوة الأحباب هناك فى أمريكا الشمالية، فى الولايات المتحدة وكندا، أحييكم من هنا، من الشرق الإسلامى، من بلاد العرب ومن ضفاف الخليج ، أبعثها إليكم تحية من عند الله مباركة طيبة، تحية الإسلام، وتحية الإسلام السلام ، فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وكم كنت أود أن أكون بينكم بجسمى كما أنا بينكم ومعكم بقلبى، كم كنت أود أن أرى تلك الوجوه المشرقة بنور الإيمان، والتى عرفت كثيراً منها من قبل فأحببتها فى الله ولله، وكم كنت أود أن أكون بينكم هذه الأيام المباركة التى تجتمعون فيها من هنا ومن هناك، من أقاصى تلك الولايات، شرقها وغربها وشمالها وجنوبها، لتلتقوا على

كلمة الله تبارك وتعالى، وعلى طاعته، وعلى نصرة دعوته، فأبشروا أيها الأخوة فإنكم ما اجتمعتم إلا لله، وإذا صحت نيتكم فكل خطواتكم وكل ما أنفقتم من نفقة هو في سبيل الله، وهو محسوب لكم في ميزان حسناتكم عند الله عزّ وجلّ، وصدق الله العظيم إذ يقول في سلفكم من المجاهدين : ﴿ **ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون** ﴾ (١) .

إن الموضوع الذي اخترتموه ليكون محور محاضراتكم ومناقشاتكم وندواتكم هوالإجابة على هذا السؤال الكبير : لماذا الإسلام ؟ لماذا ندعو الناس وندعو أنفسنا إلى الإسلام ؟ ندعو الآخرين ليدخلوا في الإسلام، فيخرجوا به من الظلمات إلى النور، ويهتدوا به إلى الصراط المستقيم . لماذا ندعو الدنيا كلها إلى الإسلام ؟ لتخرج من حيرتها وقلقها وعذابها . ولماذا ندعو أنفسنا أيضاً إلى الإسلام ؟

ندعو الآخرين إلى الإسلام ؛ لأنه وحده منهج الله عز وجل الذي يهتدون به، ويسعدون به ، وليس هذا موضوع حديثي إليكم الآن ، وإنما حديثي هو عن الشق الثاني: لماذا ندعو أنفسنا نحن المسلمين إلى الإسلام؟ وكيف يُدْعى المسلم إلى الإسلام ؟

ندعو أنفسنا إلى الإسلام؛ لأننا في الواقع ندّعي الإسلام ولا نطبقه ولا نلتزمه في حياتنا، ولا نحيا الحياة الإسلامية التي أرادها الله تعالى لنا .

---

(١) التوبة : ١٢١.

أين الإسلام فى تشريعاتنا ؟ أين الإسلام فى تربيتنا ؟ أين الإسلام فى ثقافتنا ؟ أين الإسلام فى إعلامنا ؟ أين الإسلام فى سلوكنا الفردى والاجتماعى ؟ أين الإسلام فى تقاليدنا الاجتماعية ؟ أين الإسلام فى مؤسساتنا كلها ؟

إننا نعيش على هامش الإسلام، ولذلك يجب أن نعود إلى الإسلام، يجب أن نعود إلى الإسلام لنعيش مسلمين حقا بهذا الدين، لتتم به النعمة علينا كما أراد الله تعالى لنا : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً** ﴾ (١).

نحن ندعو إلى الإسلام ، إلى العمل بالإسلام ، إلى العودة إلى الإسلام ، إلى استئناف حياة إسلامية حقيقية ، حياة إسلامية متكاملة ، توجهها عقيدة الإسلام ، وتحكمها شريعة الإسلام ، وتضبطها أخلاق الإسـلام .

ونحن نريد هذه الحياة الإسلامية، نريد أن نحيا فى حضارة إسلامية متكاملة، توجهها عقيدة الإسلام، وتحكمها شريعة الإسلام، وتضبطها أخلاق الإسلام، وتحركها دوافع الإسلام، ومشاعر الإسلام، وتربط بين أبنائها عامة أخوة الإسلام، نحن نريد هذه الحياة الإسلامية، نريد أن نحيا حضارة إسلامية، تلك الحضارة الربانية الأخلاقية الإنسـانية العالمية، هذا ما ندعو إليه.

---

(١) المائدة: ٣.

لماذا ندعو إلى الإسلام ؟ :

ولكن لماذا ندعو إلى الإسلام ؟ لماذا؟ هذا هو السؤال الكبير الذى قام عليه هذا المؤتمر، لماذا الإسلام ؟لماذا العودة إلى الإسلام؟ هنا نجيب على هذا السؤال من منطلقات ثلاثة :

١ ـ منطلق إيمانى عقائدى .

٢ ـ ومنطلق تاريخـــى .

٣ ـ ومنطلـــق واقعـــى .

فأى منطق حكّمناه يحتم علينا العودة إلى الإسلام ، سواء أحكّمنا منطق الإيمان ، أم حكّمنا منطق التاريخ، أم حكّمنا منطق الواقع .

١ ـ منطق الإيمان يفرض علينا العودة إلى الإسلام :

فإذا نظرنا إلى منطق الإيمان، نجد أننا لا يمكن أن نكون مؤمنين إذا لم نعش بالإسلام وللإسلام، وإذا لم يصبح الإسلام منهاجاً لحياتنا، ولم يصبح القرآن دستوراً لمجتمعاتنا، ولم يحكم شرع الإسلام فى كل شئوننا، لاإيمان بغير هذا، مقتضى الإيمان ، ومقتضى التزامنا بلا إله إلا الله محمد رسول الله، مقتضى هذا أن نُحكّم الإسلام ونعود إليه ونطبقه كله، هل يمكن أن يوجد إيمان ولا يوجد احتكام إلى ما شرع الله ورسوله ؟ القرآن ينفى هذا بصراحة، الله تعالى يقول: ﴿ **وما كان لمؤمن**

ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمـــرًا أن يكـون لهم الخيرة من أمرهـم﴾(١) .

ليس لك خيار بعد أن آمنت، ليس لك أن تقول : أقبل أو أرفض ، بحسبك أن تعلم أن هذا الأمر أو هذا النهي جاء عن الله ورسوله، فلا يسعك إلا أن تقول : ﴿ **سَمِعْنا وأطَعْنا غُفْرانك ربنا وإليك المصير** ﴾ (٢) . هذا هو شأن المؤمنين كما قال الله تعالى : ﴿ **إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون** ﴾ (٣) .

وهذا بخلاف المنافقين لأنهم يترددون، أحياناً يقولون: سمعنا وأطعنا إذا كان في الأمر مصلحة لهم وإلا رفضوه، وليس هذا من الإيمان في شيء، يقول القرآن الكريم : ﴿ **ألم تر إلى الذين يَزْعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أُمِرُوا أن يكفروا به ويريدُ الشيطانُ أن يُضِلَّهم ضلالاً بعيداً . وإذا قيل لهم تعالَوْا إلى ماأنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصُدون عنك صدوداً** ﴾ (٤) .

فالصدود عمَّا أنزل الله والصدود عمّا حكم به رسـول الله ﷺ هو نفاق، سواء كان هذا صدوداً من حاكم أو محكوم، مقتضى الإيمان أن ترجع إلى حكم الله ورسوله وإلا انتفى عنك الإيمان ، أقسم الله على

---

(١) الأحزاب : ٣٦ .
(٢) البقرة : ٢٨٥ .
(٣) النـــور : ٥١ .
(٤) النساء : ٦٠ ، ٦١ .

ذلك فى قرآنه قسماً مؤكداً ، فخاطب رسوله بقوله : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يُحكِّموك فيما شَجَرَ بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حَرَجاً مما قَضَيت ويسلموا تسليماً** ﴾ (١).

هذا هو مقتضى الإيمان، ولهذا ظلت الأمة الإسلامية ثلاثة عشر قرناً لاتعرف شريعة غير شريعة ربها، كان القرآن دستورها، وكانت الشريعة الإسلامية قانونها الذى تحتكم إليه ، وإليه تلجأ فى الفتوى والقضاء وفى كل شىء ، كان هناك تقصير، كان هناك انحراف، كان هناك سوء الفهم لشريعة الإسلام وسوء فى التطبيق لأحكامها، ولكن لم يكن هناك تمرد عليها أو رفض لها ، لايملك أحد هذا، أشد الناس طغياناً وجبروتاً ماكان يملك إذا ووجه بحكم الله ورسوله إلا أن يسمع ويطيع.. الحجاج بن يوسف الثقفى، الطاغية المتجبر المعروف الذى كان يأخذ بالظنة، ويقتل بالشبهة، هذا الحجاج سجن يوماً رجلاً ولم يكن هو الجانى ، وإنما جنى بعض أقربائه فجىء به أمام الحجاج وسأله عن أمره ما الذى جاء بك ، فقال : جنى جان من عرض العشيرة ، من الأقارب فأخذت به وسجنت بديلاً عنه، فقال الحجاج : إن الشاعر يقول :

جانيك من يجنى عليك ... وقد تُعدِى الصحاح مبارك الجُرب

ولربّ مأخوذ بذنب عشيرة ... ونجا المقارفُ صاحبُ الذنب

أى أن الإنسان قد يؤخذ بذنب غيره، هكذا يقول الشاعر، فقال الرجل: إذا كان الشاعرقد قال هذا فإن الله تعالى قال على لسان يوسف

---

(١) النساء: ٦٥.

عليه السلام : ﴿ **قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنّا إذاً لظالمون** ﴾ (١)، وهذا هو المعنى الذى أكده القرآن حين قال : ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾(٢) المسئولية الفردية، ولما سمع الحجاج هذه الآية من الرجل قال: خلوا سبيله، صدق الله وكذب الشاعر!

هكـذا كان الناس ، ولذلك مهما قيل إن الأمة الإسلامية قد انحرفت، فإن الإسلام ظل أساس حياتها، ولم يحدث انفصام عن شريعة الإسلام إلا فى هذا العصر، يوم دخل الغزو الاستعمارى بلاد المسلمين، وأقام للناس مناهج وقوانين جديدة تحكمهم وتوجههم غير قوانين ومناهج الإسلام ، ما عرف هذا فى وقت قط؛ لأن مقتضى الإيمان يحتم على الأمة أن ترجع إلى دينها ، وإلى كتاب ربها، وسنة نبيها محمد ﷺ .

هذا هو منطق الإيمان، وإذا احتكمنا إليه يجب أن نعود إلى القرآن وإلى السنة وإلى الإسلام حكاماً ومحكومين، وإلا رُمِينا بالنفاق وبالكفر وبالظلم وبالفسق، والذى يرمينا بذلك هوالقرآن كما قال الله تعالى فى سورة المائدة فى آيات ثلاث : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ (٣) ، ﴿ **ومن لم يحكـم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون** ﴾ (٤) ، ﴿ **ومن لم يحكـم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون** ﴾ (٥) ، ثلاث آيات أين الفرار منها ؟

ولو كان رمحاً واحداً لاتّقيته ولكنه رمح وثان وثالث !

---

(١) يوسف : ٧٩ . (٢) الأنعام: ١٦٤. (٣) المائدة: ٤٤.
(٤) المائدة : ٤٥. (٥) المائدة: ٤٧.

بعض الناس يقولون: هذه آيات نزلت فى أهل الكتاب ولم تنزل فى المسلمين، ونقول لهم: هذا صحيح، ولكن لفظها عام، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وإذا كان الله تعالى قد حكم على أهل الكتاب بالكفر أو بالظلم أو بالفسق؛ لأنهم لم يحكموا التوراة أو الإنجيل. فهل يكون من تَرَكَ القرآن، ولم يحكم بما أنزل الله فيه، أقل إثماً من هؤلاء؟! هل القرآن أدنى من هذه الكتب حتى يكون تركه والخروج عليه والإعراض عنه أقل فى الإثم من ترك الحكم بالتوراة أو الإنجيل ؟ لا .

ثم هل يكيل الله ـ جل شأنه ـ بكيلين ويزن بميزانين؟ اليهود أو النصارى إذا تركوا كتابهم كانوا كفرة وظلاما وفسّاقاً، والمسلمون إذا تركوا كتابهم، واتخذوه وراءهم ظهريا ، يكونون معافَين من الإثم والكفر والفسق والظلم ، لا .. ثم لا .

إن عدل الله واحد، وميزانه واحد، فمن حكم بغير ما أنزل الله ليس له إلا أن يُرْمَى بالكفر أو بالظلم أو بالفسق، حسب موقفه مما أنزل الله؛ هل ترك ذلك استحلالاً وإنكاراً واستخفافاً بما أنزل الله؟ هل هو معترف بأنه عاص لله؟ أم إنه يرفض رفضاً مطلقاً الرجوع إلى حكم الله، ويسميه رجعية أو تخلفاً أو غير ذلك؟ لا بد أن يحكم عليه بالكفر أو بالظلم أو بالفسق.

منطق الإيمان يحتم علينا الرجوع إلى الإسلام كل الإسلام، وليس فى زاوية من الزوايا، أو ركن من الأركان، ومما نأسف له فى عصرنا هذا

أن الإسلام قد حصر فى البلاد الإسلامية وفى المجتمعات التي تنتسب إلى الإسلام، حصر في ركن من الأركان، مثل: ركن الحديث الدينى فى الإذاعة، وكثيراً ما يكون هذا الحديث فى وقت ميِّت، والناس فيه نيام أو مشغولون، وكذلك في التلفزيون، وفى الصنحف بعض صفحة فى يوم الجمعة، وفى المدرسة حصة الدين، وفى القانون الأحوالُ الشخصية فقط، أما المعاملات الاقتصادية والتجارية والمدنية والدستورية والإدارية والجنائية، كل هذه نجد الإسلام بعيداً عنها ومعزولاً عنها تماماً.

زاوية صغيرة يأخذها الإسلام، يتصدّقون بها عليه وهو صاحب الملك! وحتى هذه الزاوية أحياناً تُستكثر عليه! فى بعض البلاد استُكثر على الإسلام أن يحكم فى الأحوال الشخصية، يريدون أن ينتزعوا منه هذه البقية، فيحرّموا الطلاق، ويحرِّموا تعدد الزوجات، وهكذا يريدون التسوية بين الذكر والأنثى فى الميراث!

حتى المسجد لم يترك للإسلام ، المنبر لم يترك للإسلام ، يريدونه منبرا موجَّهاً لا تقال فيه كلمة الإسلام، بل الكلمة التى تريدها السلطة! ومن خرج على ذلك فالويل له ثم الويل، يرمى فى السجن أو فى المعتقل أو يلاقى مصيراً غير معلوم !

وهكذا لم يترك الإسلام حراً، ولم يترك ليوجه الحياة، يراد له أن يأخذ جانباً واحداً من الحياة، يريدونها مسيحية أخرى، والمسيحية يمكنها أن تقبل أن تحكم بعض الحياة دون البعض، فمعروف فيها أن الإنسان

مشطور شطرين: شطر للدين وشطر للدولة، شطر توجهه الكنيسة، وشطر توجهه الحكومة ، شطر لرجل الدين وشطر لرجل السياسة، وهذا موجود فى الإنجيل ، كما يقولون : إن المسيح قال لهم : أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله! فإذن الإنسان والحياة نصفان وشطران، شطر لقيصر، وشطر لله.

والإسلام يرفض هذا المنطق تماماً ، يرفض قسمة الحياة ، وقسمة الإنسان، فالحياة كلها لله، والإنسان كلّه لله، وكل شيء فى هذا الوجود لله، فقيصر وما لقيصر لله الواحد القهار، ولله ما فى السموات وما فى الأرض، ولله من في السموات ومن فى الأرض ، ولله ملك السموات والأرض، ولا يقبل الإسلام هذا الانشطار أبداً وهذه الثنائية غير موجودة فيه. هناك إنسان واحد توجهه سلطة واحدة ، وقيادة واحدة ، ولم تكن الخلافة الإسلامية سلطة زمنية بجانبها سلطة بابوية أو روحية أخرى ، بل كانت سلطة دينية ودنيوية معاً ، وحينما قدم النبى ﷺ أبا بكر ليؤمّ الناس فى الصلاة قال عمر ومن معه من الصحابة : رضيه رسول الله لديننا أفلا نرضاه لدنيانا ؟ وهكذا لم يكن النبي ﷺ رجل دين ومعه رجل دنيا، أو مَلِك أو قائد آخر، بل كان هو النبيُ المبلغ عن الله، وهو القائد فى الحرب ، والرئيس للدولة ، والحكَم فى القضاء ، وكذلك كان أصحابه من بعده ،الخلفاء الراشدون ، ما كان هناك هذا الانفصال المشئوم بين الدين والدولة.

الإسلام دين ودولة ، عقيدة وشريعة ، عبادة وقيادة ، مصحف

وسيف، صلاة وجهاد، لا انشطار ولا انفصام ، هذا هو الإسلام، لا يقبل الإسلام أبداً تلك التجزئة بين ما أسمَوْه ديناً وما أسمَوْه دولة، كله دين في نظر الإسلام، وكله شرع ، الحياة نهر واحد لاتستطيع أن تفصل فيها شيئاً عن شيء ، السياسة مختلطة بالاقتصاد ، والسياسة والاقتصاد متصلان بالتربية والتعليم ، وبالإعلام ، وبالفكر وبالثقافة ، والحياة الاجتماعية متصلة بالحياة الفكرية ، وكلتا الحياتين متصلة بالحياة الاقتصادية، والجميع متصل بالحياة السياسية، هكذا الحياة كما فطرها الله، وكما يعايشها أو يعيشها الناس .

ولذلك لا تقبل الأيديولوجيات الكبرى قسمة الحياة، الشيوعية وغيرها لاتقبل أن تُقسم الحياة، تريد أن تحكم الحياة كلها، لا يمكن زن تدع التعليم لغيرها، أو تدع الثقافة أو الفكر لسواها، تريد أن تأخذ الحياة من بابها، من ألفها إلى يائها.

وكذلك الإسلام لا يقبل أبداً أن يترك جانباً دون أن يوجهه ودون أن يحكمه، وإلا كان إيماناً ببعض الكتاب وكفراناً بالبعض الآخر، كما قال الله تعالى موبخاً لبنى إسرائيل حينما مزقوا الدين مِزَقاً وأجزاء، قال : ﴿ **أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشدّ العذاب وما الله بغافل عما تعملون** ﴾ (١) .

(١) البقرة : ٨٥ .

هذا هو منطق الإيمان ، منطق العقيدة ، إذا احتكمنا إليه يحتم علينا أن نعود إلى الإسلام كله ، عقيدة وشريعة ، عبادة وأخلاقاً ، معاملات ونظاماً ، يجب أن نعود إلى الإسلام باعتباره منهج الحياة الذى يوجهها كلها : البيت والمسجد والمدرسة والجامعة والمحكمة والمزرعة والمصنع والشارع ، وكل شئون الحياة .

ثم باعتباره رسالة تصحب الإنسان وتوجهه وتشرع له، من المهد إلى اللحد ، تشرع للإنسان من وقت ولادته، بل له أحكام تتعلق بالجنين فى بطن أمه، له أحكام إلى أن يموت الإنسان ، فهناك أحكام الجنائز، وبعضها أحكام تتعلق بالإنسان بعد أن يموت، كيف يغسل؟ وكيف يكفن؟ ويصلَّى عليه؟ ويدفن؟ وكيف يتم ذلك كله؟ وكيف توزع تركته؟ وتؤدى ديونه؟ وتنفذ وصاياه؟ أحكام تتعلق بالإنسان فى كل مراحل حياته (١) ، فمنطق الإيمان يحتم علينا ـ حتمية دينية إيمانية ـ أن نعود إلى الإسلام ، كل الإسلام ، فى جميع جوانب الحياة ، وجميع أطوار الحياة .

٢ ـ منطق التاريخ يؤيد منطق الإيمان :

فإذا احتكمنا إلى المنطق الثانى ، منطق التاريخ ، إذا استوحينا

---

(١) انظر فى شمول الإسلام بأنواعه وجوانبه المختلفة: فصل الشمول فى كتابنا : (الخصائص العامة للإسلام) وكتاب : (شمول الإسلام) شرح الأصل الأول من الأصول العشرين للإمام الشهيد حسن البنا .

التاريخ ، ولنقتصر على تاريخ أمتنا فقط ، نجد أن هذا التاريخ يفرض علينا أن نعود إلى الإسلام ، فنحن لم نكن شيئاً إلا بالإسلام ، إذا نظرنا إلى العرب باعتبارهم صلب الأمة الإسلامية ، وعَصَبَة الإسلام ، فَمِن أرضهم انطلق الإسلام ، وفى أرضهم تقع المقدسات : مكة والبيت الحرام ويقع مسجد الرسول ﷺ والمسجد الأقصى ، وبلغة العرب نزل القرآن ، ومنهم أنفسهم بعث محمد عليه الصلاة والسلام ومنهم ظهر أفضل أجيال البشر ، جيل الصحابة الذى نشر الإسلام فى العالم .

فإذا نظرنا إلى العرب ماذا كانوا قبل الإسلام، وماذا كانوا بعد الإسلام؟ نجد أنهم قبل الإسلام لم يكونوا شيئاً مذكوراً ، ماذا كانت أمة العرب ؟ أمة لم تكن لها حكمة الهند ، ولا صنعة الصين ، ولا فلسفة اليونان ، ولا تشريع الرومان ، ولا مدنيَّة الفرس . أمة مبعثرة ممزقة إلى قبائل ، يأكل بعضها بعضاً ، مزقتها العصبية العمياء ، ينتصر كل واحد لقبيلته بالحق أو بالباطل ، إذا غضب الرجل ـ خصوصاً إذا كانت له مكانة فى قبيلته ـ غضب له ألف سيف ، عشرة آلاف سيف ، مائة ألف سيف ، لا يسألونه فيما غضب ، وكما قال شاعرهم :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم فى النائبات على ماقال برهانا

بحسبه أن يقول : إن القبيلة الفلانية قد تعدت عليه، فيهب الجميع للقتال، وتقوم حرب قد تطول عشرات السنين لأتفه الأسباب.. قامت حرب البسوس بين بكر وتغلب فى الجاهلية أربعين سنة من أجل ناقة، وقامت حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان من أجل فرس! عصبية

قبلية شديدة ضيقة الأفق، شعار الواحد منهم كما قال النبى ﷺ : «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » ، هذا شعارهم قبل أن يعدله النبى عليه الصلاة والسلام ويعطيه مفهوماً آخر فيقول : « تنصره ظالماً ؛ بأن تمنعه من الظلم » (١)، ولكنهم قبل ذلك كانوا يأخذون الكلمة على ظاهرها قبل تعديل هذا المفهوم بالإسلام .

كان العرب أمة مبعثرة ضائعة، كانوا فى ضلال مبين، كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ **هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين** ﴾ (٢) ، وأى ضلال أكبر من عبادة الأصنام ، الكعبة التى بنيت للتوحيد كان فيها ثلاث وحولها مائة وستون صنماً ! القبائل لها أصنام لكل قبيلة ، بل للفرد ، والبيت الواحد كان فيه صنم أو أكثر . كان الشخص إذا سافر يصحب إلهه معه . ومما يحكى من الطرائف المضحكة ـ وشر المصائب ما يضحك ـ أن أحدهم كان أحيانا يأخذ إلهه معه، وبعض القبائل كانت تصنع آلهة من العجوة ، فإذا فنى الزاد فى السفر غلبه الجوع ، ماذا يصنع والمعدة لا ترحم ؟ فلا يجد إلا إلهه ، الإله المصنوع من العجوة ، فيستدير إليه ويأكله ، أحياناً يفطر بثلثه ، ويتغذى بثلثه ، ويتعشى بالثلث الآخر ! آلهة تؤكل ويتهافت عليها الذباب، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم : ﴿ **وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب** ﴾ (٣).

(١) رواه البخارى فى الإكراه حديث (٦٩٥٢).

(٢) الجمعة : ٢ . (٣) الحج : ٧٣ .

يقول أبو رجاء العطاردى كنا إذا استحسنا حجراً عبدناه، فإذا وجدنا حجراً أحسن منه طرحنا الأول وعبدنا الثانى، فإذا لم نجد حجراً جئنا ببعض حثيات من التراب وحلبنا عليها من شاة ثم صورناها واتخذناها إلهاً.

أى أمة هذه التى وصل الأمر بها إلى هذا الحد ؟ فسد العقل الإنسانى ، فعَبَد الأحجار ، وعبد آلهة من الحلوى أو من العجوة ثم يأكلها ! وفسد القلب الإنسانى إلى حد أن الإنسان فى الجاهلية كان يقتل ولده الذى خرج من صلبه، ويقتله لماذا؟ يقتله من إملاق أو خشية إملاق، أى من فقر واقع أو خشية من فقر متوقع، ويقول: أجاء هذا المولود ليزيد فقرنا فقراً ، أو ليضيق علينا الرزق ؟ ويقتل ولده كما جاء فى الحديث «مخافة أن يطعم معه» (٢) ، وبخاصة البنات، فقد كان القتل فيهن أكثر؛ لأنهن لم يكنَّ يسعين للرزق ويشاركن فيه، وكذلك خشية أن يجلبن العار فى المستقبل ، فقد تأسرها قبيلة من القبائل المغيرة ، وتجلب على أهلها الذل ، وتلطخ جبين القبيلة بالعار ، ومن هنا كانوا يقتلون البنات ويئدونهن ، ولا يفرحون بولادتهن .

قيل لبعضهم : امرأتك ولدت ، قال : وما ولدت ؟ قيل : أنثى ، قال : ما هى بنعم الولد ، نصرها بكاء وبرها سرقة ! أى إذا نصرتنى لا تنصرنى بحمل السيف وإنما بالبكاء والعويل، وإذا برتنى تبرنى من مال زوجها، أى : تسرق زوجها .

---

(٢) جزء من حديث متفق عليه عن ابن مسعود .

هذه هى نظرتهم للأنثى ، ولذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ **وإذا بُشّرَ أحدُهم بالأنثى ظل وجهُهُ مسوداً وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشّر به أيمسكه على هونٍ أم يدسُه فى التراب ألا ساء ما يحكمون** ﴾ (١) ، يتوارى من القوم ، أى يبحث عن الطرق البعيدة عن الناس كأنما ارتكب جريمة ويريد أن يتخفى من الناس حتى لا يروه ، ثم يفكر هل يرضى بالواقع وبالذل وبالهوان ويقبل هذا المخلوق الجديد أم يتخلص منه ويدسه فى التراب ؟ وكثيراً ما كان ينتصر الاتجاه الثانى فيدسه فى التراب .

أية بشاعة وأية جريمة أفظع من هذه الجريمة؟ القتل فى ذاته جريمة بشعة ؛ لأنه هدم لبناء بناه الله عز وجل، فكيف إذا كان قتل طفل برىء لم يقترف جرماً ولم يرتكب إثماً ؟

وكيف إذا كان هذا الطفل ابن الإنسان ؟ الأب الذى يفترض فيه أن يحمى أبناءه ويجوع ليشبعوا ، يقتل ولده وفلذة كبده بيده ويقتله خوفاً من أن يطعم معه ويشاركه في الأكل والرزق، يقتله من أجل الإملاق ومن أجل اللقمة !

وكيف يقتله: ليته يضربه بالسيف فيريحه، لكنه يحفر له حفرة ثم يدفنه فيها حياً! وفى بعض القصص أن الرجل ذهب يدفن ابنته وهى تنفض الغبار المتطاير عن لحيته ، تخاف عن لحيته من الغبار ولا يخاف عليها من الموت، فيدفنها حية !

---

(١) النحل : ٥٨ ، ٥٩ .

أى جناية جنتها الجاهلية على الإنسان ؟ الإنسان عقل وقلب ، وقد فسد عقل الإنسان إلى حد عبادة الأحجار وعبادة إله العجوة ، وفسد قلب الإنسان وعاطفته إلى حد أنه يقتل ولده ، يقتل ابنته وفلذة كبده .

هكذا أفسدت الجاهلية الحياة ، ولذلك أصبح كل ما فى الحياة فاسداً بعد ذلك ، ليس هناك تشريع يضمن حقوق الضعفاء من الناس ، حق الفقير، أو حق الرقيق، أو حق المرأة . المرأة كانت تُورَث ولا تَرِث ، الرجل يرث امرأة أبيه مع ما يرثه من المال ، يرثها كما يرث دابته وبقرته ، إن أعجبته تزوجها وإن لم تعجبه أخذ منها شيئًا تفدى به نفسها ، إتاوة يفرضها عليها ، حتى يتركها حرة تتزوج بعد أبيه من تشاء .

الرقيق كانوا كأنهم ماشية ، الفقراء لاحقوق لهم ، لا يعتبر الأغنياء أن لهم أى حق عندهم ، القوى يأكل الضعيف ، هكذا كان الناس فى الجاهلية ، الخمر والزنا أشد ما يكون من الانتشار ، أولع العرب بالخمر فكان لها حوالي مائتى اسم ، ووصفوها في أشعارهم ، وصفوا مجالسها وندماءها وأقداحها ، إلى آخره ، الزنا منتشر : علنى وهو السفاح ، وسرى وهو اتخاذ الأخدان ، كان للرجل رفيقة معيّنة ، وللمرأة رفيق معيّن .

كل هذا كان منتشراً ، فسدت الحياة، أفسدتها الجاهلية ، وجاء الإسلام فجعل من هذه الأمة شيئاً جديداً ، جمع الشتات ، وأحيا الموات ، علمهم من جهالة ، وهداهم من ضلالة ، وقواهم من ضعف ، وعلمهم النظام بعد الفوضى ، والطهارة بعد الإباحية ، والاستقامة بعد

الانحراف ، والتوحيد بعد الوثنية. تعلموا بعد أن كانوا أمة أمية لا تكتب ولا تحسب، كما جاء فى الحديث. الذين يكتبون ويقرأون من العرب كانوا معدودين على الأصابع، ومنذ غزوة بدر جعل النبى ﷺ فداء من يكتب أن يعلم عشرة من أولاد المسلمين الكتابة.

أول آية نزلت من القرآن كانت : ﴿ **اقـرأ** ﴾ (١) وكانت السورة الثانية هى سورة القلم : ﴿ **والقلم وما يسطرون** ﴾ (٢) ، أقسم الله بالقلم ليدعو الأمة إلى أن تتعلم ، تغيرت الأمة من الجهالة إلى العلم ، علم الدين وعلم الدنيا، انتشر العلم ، وقامت حضارة جمعت بين العلم والدين ، بينما عرفت الأمم الأخرى الصراع بين الدين والعلم ، صراع طويل عرفته المسيحية وغيرها بين الدين من ناحية وبين العلم من ناحية أخرى ، قامت محاكم التفتيش تحاكم العلماء وتقتلهم وتحرّق جثثهم بعد موتهم ، وتحرّق كتبهم. ومن جاء بنظرية جديدة أو باختراع جديد، فلا يقبل منه ، بل يعاقب عليه! ولم يعرف الإسلام هذا ؛ لأن الدين عندنا علم ، والعلم عندنا دين .

الحضارة الإسلامية عرفت بأنها حضارة علمية إيمانية معاً، وكتب المسلمين العلمية كانت هى المراجع العلمية التى تدرس فى الجامعات فى أوربا وغيرها، من أمثال كتاب (القانون) فى الطب لابن سينا ، أو (الحاوى) فى الطب للرازى، أو (التصريف لمن عجز عن التأليف) لأبى القاسم الزهراوى، أو (الكليات) لابن رشد. هذه كلها كتب طبية

---

(١) العلق : ١. (٢) القلم : ١.

كانت مراجع علمية عالمية، وكذلك فى الفلك وفى الرياضيات وفى الجبر، المسلمون هم الذين اخترعوا علم الجبر، اخترعه الخوارزمى، واخترعه ليحل به مسائل فى الميراث والوصايا، ولذلك نشر معه (رسالة الوصية)، هكذا كان العلم فى الحضارة الإسلامية.

المسلمون هم الذين وضعوا أسس المنهج التجريبى الذى ينسب الآن إلى فرنسيس بيكون ، المسلمون هم واضعو هذا المنهج حقيقة ، وهذا ما اعترف به مؤرخو العلم ، جورج سارتون فى كتابه (تاريخ العلم) ، جوستاف لوبون فى كتابه (حضارة العرب) ، داريير فى كتابه (النزاع بين العلم والدين) ، بريفولت فى كتابه (بناء الإنسانية) كلهم اعترفوا بأن المنهج التجريبى أخذ من الحضارة الإسلامية، وفرنسيس بيكون وسميه روجر بيكون كانا رسولى الحضارة الإسلامية إلى أوربا ، اللغة العربية كانت اللغة الوحيدة التى تعتبر لغة العلم العالمية فى ذلك الوقت .

هكذا صنع الإسلام ، غيّر الأمة الأمية إلى أمة علم ، أخذت من الأمم الأخرى وزادت عليها ، أخذت من اليونان ومن الهند ومن الفرس ومن الروم ، وأضافت وهذبت ونقحت وابتكرت .

ومن ناحية أخرى صنع الإسلام إنساناً جديداً غير إنسان الجاهلية ، صنع إنساناً له عقل وقلب، رفض الوثنية بكل أنواعها وصورها وأبى إلا التوحيد ، وعرف معنى : (لاإله إلا الله) فلم تعد جبهته تطأطئ لإنسان ، لم يعد ينحنى راكعاً، أو يخر ساجداً إلا لله ، عرف معنى العزة

بالإسلام والكرامة بالإسلام : ﴿ **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين** ﴾[1] .

صنع الإسلام من الإنسان العربى القديم خلقاً آخر، انتقل من الجاهلية إلى الإسلام بعقل جديد وفكر جديد ، باتجاهات جديدة ، وبأخلاق جديدة ، وبسلوك جديد . ولذلك صنع حضارة ضخمة، صنع تاريخاً شامخاً جمع فيه العلم إلى الإيمان ، إلى الأخلاق الربانية والإنسانية ، أقام حضارة عادلة تعدل بين الأمم ، وتعدل بين الطبقات ، كما تعدل بين الأفراد .

عرّف الفقير لأول مرة أن له حقاً عند الغنى ، الإسلام قرر أن للفقراء حقوقاً فى أموال الأغنياء قبل أن تظهر المذاهب التى نعرفها فى عصرنا كالاشتراكية وغيرها ، سماه القرآن حقاً : ﴿ **والذين فى أموالهم حقٌ معلوم** ﴾ [2] لم يعقد الفقراء مؤتمراً ليطالبوا بحق لهم ، ولم يسيّروا مظاهرة تطالب بما لهم عند الأغنياء ، بل ما شعروا يوماً أن لهم أى حق ، ولا الأغنياء اعترفوا بهذا الحق ، ولكن الإسلام أقرّ ذلك وفرضه ؛ لأن المال مال الله ، والناس عباد الله ، فيجب أن يأكل عباد الله من مال الله ، الجميع يجب أن يأكل من هذه المائدة الممدودة التى مدها الله للجميع ، ولم يكن هذا مجرد شىء يتطوع به ، أوشىء هلامى غيرمحدد ، فقد أصبحت هناك فريضة إسلامية تعتبر الركن الثالث فى الإسلام اسمها (الزكاة) ، ذات حقوق محددة ، وحدود معلومة : فيم تجب الزكاة ؟ وكم يجب من المال ؟ عشر ، نصف عشر ،

---

(١) المنافقون : ٨ .
(٢) المعارج : ٢٤ .

ربع عشر؟ ومتى تجب ؟ فريضة حولية أو فريضة عند الحصاد؟ ﴿ **وآتوا حقه يوم حصاده** ﴾ (١) وهناك طوائف ، ثمانية مصارف مستحقة ، وهناك إشراف من الدولة ﴿ **خذ من أموالهم صدقة** ﴾ (٢) بواسطة (العاملين عليها) ، ومن لم يدفع طوعاً أخذت منه كرهاً .

وكانت الدولة الإسلامية أول دولة فى التاريخ تقاتل ، وتشهر السيف، وتعلن الحرب من أجل انتزاع حقوق الفقراء عند الأغنياء .

أبو بكر الصديق رضى الله عنه أول من حارب من أجل هذا ، وقال كلمته المعروفة : « والله لو منعونى عقالاً كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه » ، وجيّش أحد عشر جيشاً لقتال المرتدين ومانعى الزكاة .

امتد الرخاء فى هذه الدولة حتى إنه فى زمن عمر بن عبد العزيز كان الرجل يهمه أمر زكاته ، فيبحث عن من يقبل منه صدقته، وكان أحياناً يلف ويدور يفتش عمن يأخذ الزكاة فلا يجده ، ويرجع بها كما كانت ، وهكذا بلغ المسلمون من القوة .

جلس الخليفة العباسى هارون الرشيد يوماً ينظر إلى سحابة فى السماء فقال لها من منطق العزة والافتخار: أيتها السحابة شرّقى أوغرّبى، وأمطري حيث شئت فسيأتى الخراج إلى بيت مال المسلمين! أى : حيثما ذهبت تمطرين فى أرض إسلامية، وتخرجين زرعاً يؤخذ منه

---

(١) الأنعام : ١٤١. (٢) التوبة : ١٠٣.

العشر زكاة إلى بيت المال، ومن بلاد أخرى يأتى الخراج ويؤخذ منه إلى بيت مال المسلمين.

ما الذى صنع هذا؟ إنه الإسلام ولاشىء غير الإسلام، الإسلام هو الذى صنع هذا المجد، هذا الرخاء، هذا العدل، هذه القوة، هو الذى صنع هذه الأمة الكبيرة، وصنع هذه الحضارة العظيمة، الإسلام بغير شك هو صانع هذا كله، ورضى الله عن عمر حينما ذهب إلى الشام، وقابلته مخاضة فى الطريق، فنزل وقد خلع نعليه، وخاض كما يخوض عامة الناس ، شمر عن ساقيه وخاض المخاضة ، فقال له أبو عبيدة أمير الجيوش : لو فعلت غير ذلك ! يعنى : لو بقيت على حصانك أو ناقتك ولا داعى أن تخوض كما يخوض عامة الناس حتى تظهر بالفخامة والأبهة التى عرفها هؤلاء الناس للملوك وللأباطرة والقياصرة من قبل ، فقال عمر لأبى عبيدة : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ! استكثر عليه أن يقول مثل هذا وهو أمين الأمة ، قال : يا أبا عبيدة ، نحن كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام ، فمهما نطلب العز بغيره أذلنا الله !

عزة الأمة الإسلامية بالإسلام، هذا هو منطق التاريخ، والفترات المضيئة المخصبة فى التاريخ الإسلامى، هي الفترات التى يقترب الناس فيها من الإسلام، إذا رأيت انتصاراً فاعلم أن وراءه رجعة إلى الإسلام، وحركة بالإسلام وإلى الإسلام، لننظر لفترة مثل فترة عمر بن عبد العزيز الذى سار على نهج الراشدين وأحيا سنة عمر الأول، واعتبر خامس الخلفاء الراشدين، ورغم أنه حكم ثلاثين شهراً فقط نجده قد أقام هذا

الرخاء ، وأقام هذه الحياة، فكيف لو طالت مدته؟

ولننظر لعصر صلاح الدين الأيوبى ، ومن قبله الشهيد نور الدين محمود ، لقد حكما بشرع الله عز وجل ونفّذا الإسلام ، ونفخا فى الناس روح الإيمان ، ولم ينتضر صلاح الدين الأيوبى بمجرد الكلام ، بل حاول أن يصنع من السلاح ما قدر عليه ، وأن يجدد الإيمان فى القلوب ، كان بين الصفوف فى المعركة يطلب أن يقرأ عليه من صحيح البخارى ، فيقرأ له ، وكان يمر بالليل على جنود جيشه فى الخيام ، فإذا وجد فى خيمة من الخيام رجلاً يصلى ، أو يقرأ القرآن ، أو يذكر الله، أو يسبح أو يهلل ، أو يكبر ، فرح وقال : الحمد لله ، بهذا ننتصر! وإذا وجد خيْمة من الخيام أهلها كلهم نيام يقول : أخشى أن تجيئنا الهزيمة من مثل هذه الخيْمة ؛ لأن الكل نيام ولا أحد يقول : يارب !

بهذا انتصر صلاح الدين على الصليبيين ، الذين جاءوا بقضهم وقضيضهم من أوربا يريدون أن يجتاحوا الإسلام فى دياره .

فإذا رأيت مرحلة من المراحل التاريخية فيها عز وازدهار، وقوة وانتصار، فاعلم أن هناك إسلاماً تحرك وحرّك، هذا هو الثابت فى التاريخ، ولذلك إذا ما أردنا العزة والقوة والسيادة والتحرر والوحدة فلنرجع إلى الإسلام ، ولنجرب ، والإنسان إذا جرب دواء واستراح عليه وشفى به، فمن المفروض أن يستعمل هذا الدواء ولا يبحث عن دواء جديد كى لا يجعل نفسه حقل تجارب لأدوية متعددة يصفها له الواصفون ، وخاصة إذا كان هؤلاء الواصفون غير مأمونين عليه.

لقد جربنا الإسلام في تاريخنا، جربته أمتنا، فوجدت فيه الشفاء لكل داء ، والحل لكل عقدة، والعلاج لكل معضلة، ولا غرو فهو هدى الله ، وهو الهداية الربانية ، وهو القانون السماوى ، دستور الخالق لإصلاح الخلق ، وقانون السماء لهداية الأرض ، حكم الله : ﴿ **ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون** ﴾ هذا هو منطق التاريخ إذا أردنا الاحتكام إليه .

٣ ـ منطق الواقع يؤيد منطق الإيمان ومنطق التاريخ:

بقى منطق آخر يجب أن نتحدث عنه، إذا لم يكفنا منطق الإيمان، وإذا لم يقنعنا منطق التاريخ فلنحتكم إلى منطق الواقع وهو منطق قوى السلطان، واضح البرهان، فالواقع الذى نعيشه، هذا الواقع يفرض علينا أن نعود إلى الإسلام كل الإسلام .

لقد جربنا الأفكار والمذاهب والأنظمة المستوردة من الشرق أو الغرب ، جربنا النظام الرأسمالى الليبرالى ، وجربنا النظام الاشتراكى الثورى فى بلادنا الإسلامية ، فماذا أنتجت هذه الأنظمة وهذه المذاهب المستوردة ؟ إنها لم تطعم الناس من جوع ، ولا آمنتهم من خوف ، ولا أسعدتهم من شقاء ، ولا وحدتهم من فرقة ، ولا قوتهم من ضعف ، ولا أعزتهم من ذل ، وظللنا نحن كما نحن ، مشاكلنا لم تحل، بل ازدادت ، ولم ننتقل من سيىء إلى أحسن .

فمن المفروض أننا حين نجرب نظاماً من الأنظمة ، أو حلاً من

الحلول ، أن ننتقل من أسوأ إلى سيىء ، ومن سيىء إلى حسن ، ومن حسن إلى أحسن ، ولكن الذى يحدث للأسف أننا ننتقل من سيىء إلى أسوأ ، ومن أسوأ إلى أشد سوءًا ، وهكذا ، نشكو وتشكو كل البلاد .

نحن نشكو فساداً أخلاقياً ، وانهياراً اقتصادياً ، وتفسخاً اجتماعياً ، وتحللاً أسرياً ، نشكو ضعفاً دينياً ، واضطراباً سياسياً ، نشكو تجزئة الأمة وتفرّقها ، كثرت الشكوى من كل ناحية ، ولكن ما النتيجة ؟ الكل يشكو ويتساءل : أين العلاج ؟ والعلاج بين أيدينا ولكنا لا نلجأ إليه .

لقد جربنا ما استُورد من الغرب ، وما استورد من الشرق ، ولم نجرب ما عندنا ، والأصل أن نجرب بضاعتنا قبل أن نستورد من هنا ومن هناك ، الأنظمة الاقتصادية الآن تمنع استيراد بضاعة يصنع مثلها فى البلد حماية لها .

كذلك لا يجوز للإنسان أن يتسول وهو غنى ؛ لأن هذا شيء تعاقب عليه الأخلاق، وتعاقب عليه القوانين، ونحن نتسول رغم أننا لدينا أعظم ثروة تشريعية، وعندنا أعظم هداية ربانية، ومع هذا نبحث عن هذا وذاك ، نبحث فى فلسفات الغرب والشرق ، ونتسكع هنا وهناك ، نريد أن نأكل من موائد غيرنا ، وجربنا وما نفع ، فماذا صنعنا ؟

الأمة حتى الآن لم تتقدم ، لازلنا متخلفين فى معركة التقدم ، لم نتقدم لا صناعياً ولا زراعياً ، بلد مثل مصر بدأ نهضته الصناعية مع اليابان فى وقت واحد ، فى أيام محمد على ، انظروا أين وصلت اليابان ؟ وأين نحن ؟

بلاد بدأت الصناعة منذ عهد قريب مثل كوريا أصبحت منتجاتها في قلب أوربا وأمريكا الآن ، ونحن ما زلنا وراء الوراء ، لم نصنع ما نحتاج إليه لا عسكريًا ولا مدنياً ، وإذا لم يمدنا غيرنا بالسلاح وقفنا مكتوفي الأيدى في أية معركة ؛ لأن الطائرة والصاروخ والدبابة والمدفع والبندقية من عند غيرنا ، فكيف نحارب وأسلحتنا بيد غيرنا؟ هذا من الناحية العسكرية.

ومن الناحية المدنية فنحن لم نصنع حتى الصناعات البسيطة، نستوردها أيضاً ، ولقد أشار القرآن إلى الصناعات الحربية في قوله تعالى : ﴿ **وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد** ﴾ (١) وإلى الصناعات المدنية في قوله تعالى : ﴿ **ومنافع للناس** ﴾ (٢) ولطالما قلت : إن أمة سورة الحديد لم تتعلم صناعة الحديد إلى اليوم وهكذا لازلنا متخلفين .

العالم الإسلامي كله يصنف ضمن (العالم الثالث) الذى يسمونه (البلاد النامية)، وعبارة البلاد النامية تعبير ملطف للبلاد المتخلفة، أى أنها بلاد تسعى للنمو، وللأسف فهو نمو بطيء جداً، ونحن نسير بسرعة السلحفاة ، وغيرنا يسير بسرعة الصاروخ . فتزداد الهوة كل يوم بيننا وبين العالم المتقدم الذى نحاول اللحاق به، وهيهات هيهات .

ماذا صنعت الأنظمة العلمانية التى تحكم العالم الإسلامي؟ لم تصنع في معركة التقدم شيئاً، فالعالم يعيش الآن عصر الصناعة الثاني بعد أن

(١ ، ٢) الحديد : ٢٥.

عاش عصرها الأول الذى كانت الآلة تعمل فيه لتوفير الجهد البدنى والعضلى للإنسان . الآن وفى عصر الصناعة الثانى أصبحت الآلة تعمل لتوفير الجهد العقلى للإنسان، عصر (الكمبيوتر)، إلى أى مدى وصلنا نحن فى هذا؟ لازلنا فى مرحلة الصفر !

وليس هذا فى الصناعة فقط بل فى الزراعة أيضاً فالعالم الإسلامى، وهو عالم زراعى في أصله، لا يستطيع أن يكفى نفسه بنفسه، يحتاج إلى أن يستورد القمح أو الأرز، ولو كفّت البلاد الأخرى أيديها عن إمداده لمات جوعاً ! فماذا إذن ؟

إذا كنا لا نستطيع أن ندافع عن أنفسنا ؛ لأن سلاحنا من عند غيرنا، وإذا كنا لا نستطيع أن نشبع بطوننا ؛ لأن قوتنا أيضًا فى كثير منه من عند غيرنا ، فماذا صنعنا ؟

نحن متخلفون صناعياً وزراعياً وعلمياً وفى كل النواحى ، مجزءون مبعثرون ، الأمة الإسلامية الآن حوالى ألف مليون نسمة ، ولكنهم ليسوا قوة مؤثرة ، لماذا ؟ لأنهم كما وصفهم الحديث : « كثرة كغثاء السيل » (١) ، وغثاء السيل هو مايحمله السيل العارم من الحطب

(١) إشارة إلى الحديث الذى رواه أحمد وأبو داود عن ثوبان مرفوعاً : « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها » قالوا : أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال : « بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل . ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن فى قلوبكم الوهن » قالوا : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : « حب الدنيا وكراهية الموت » .

والقش والورق والخشب، أشياء خفيفة سطحية غير متجانسة، تسير فى غير هدف مرسوم، وفي غير مجرى معلوم، وهكذا الأمة الكبيرة حينما لا يكون لها هدف واحد، ولا يكون بينها تجانس، ولا يكون لها خط محـدد يخـف وأنها ، وتصبح غثاء كغثاء السـيل ، وينزع الله من صدورعدوها المهابة منها ، ويقذف فى قلوبهم الوهن .

هذه هى أمتنا الإسلامية، لم تصنع شيئاً رغم كثرة عددها، ولم يكن لها أن تتحد ما لم يكن الإسلام هو موحّد كلمتها، وبغيره يفترق الناس يميناً ويساراً ، وينقسـمون إلى يمينيين ويسـاريين ، وينقسـم أيضاً كل من اليمين واليسار إلى مراتب ودرجات ، وإلى قِبْلات متعددة ، وبذلك لا يلتقون ما دامت وجهتهم غير الإسلام ، وهدفهم غير رضوان الله عز وجل ، وهذا هو ما حذر منه رسول الله ﷺ حينما خط خطًا مستقيماً وقال : « هذا سـبيل الله المسـتقيم » ، ثم خط عن يمينه وعن شماله خطوطاً متعرجة وقال : « هذه سبل ، على رأس كل واحدٍ منها شيطان يدعـو إليه » ، ثم تلا قـول الله تعالى : ﴿ **وأن هذا صـراطى مسـتقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السـبل فتفرق بكم عن سـبيله** ﴾ (١) .

منهج الله هو الذى يجمع الجميع، وإلا تفرق الجميع ولم يلتقوا، وهذا ما يحدث فى الأمة الإسلامية، جماعة تتجه نحو الشرق، وجماعة نحو الغرب، وحتى داخل الوطن الواحد والشعب الواحد نجد الناس

---

(١) الأنعام : ١٥٣.

ممزقين ومبعثرين، والإسلام وحده هو الذى يستطيع أن يجمعهم ويؤاخى بينهم، ويجعل منهم كتلة واحدة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، ويعطيهم روح القوة وقوة الروح، ويجدد شباب الإيمان فيهم، ويجعل منهم قوة فعالة مؤثرة؛ لأنه صانع المعجزات.

لماذا وقفت الأمة الإسلامية أمام فارس والروم؟ لقد انتصر العرب عليهما، رغم أنهما كانا أكثر عدداً وأقوى عدةً، وأعظم حضارة، انتصروا عليهم بالإسلام بعقيدة عظيمة، ورسالة جديدة، جعلت منهم أناسيّ جدداً.

وفى عصرنا هذا لم نستطع ونحن مائة وخمسون مليون عربى ـ أو أكثر ـ الانتصار على بنى إسرائيل؛ لأننا لم نقاومهم بالإسلام ، ولقد أقامت إسرائيل دولتها باسم الدين، وحاربت بعقيدة، ونحن لم نرض لمعاركنا أن تقاد باسم الله ، وباسم الإسلام ، وحاربنا بغير عقيدة ، فلا عجب أن ينتصروا وأن ننهزم !

ويوم رجعنا إلى إسلامنا مدة من الزمن، صنعنا عجباً فى معركة العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣هـ ، وأبطلنا أسطورة القوة التى لا تقهر ، والسلاح وحده لا يقاتل ، وإنما يقاتل السلاح بيد من يستعمله ، يقول المتنبى :

وما تنفع الخيل الكرام ولا القنا إذا لم يكن فوق الكرام كرام !

ويقول الطغرائى :

وشيمة السيف أن يزهى بجوهره وليس يعمل إلا فى يد بطل !

والبطولة إنما يصنعها الإيمان، وإذا كان عند اليهود التوراة، فعندنا القرآن ، وإذا كان عندهم التلمود فعندنا السنة ، عندنا صحيح البخارى ومسلم ، عندنا دواوين الحديث الشريف ، لماذا لا نحاربهم بمثل ما يحاربوننا به ؟ هذا ما ينبغى أن نفعله.

الإسلام هو القادر وحده على أن ينقذنا مما نحن فيه ، لأن العمل كى يتقن يحتاج إلى أخلاق، والصانع الذى يتقن عمله لابد له من مجموعة أخلاق تكوّن سلوكه ، وتكيّف حياته ، ولا يكون ذلك إلا بعقيدة، والعقيدة عندنا هى الإسلام، فإذا فرّغنا الناس من العقيدة لم نجد الصانع الذى يحسن، ولا العامل الذى يتقن، والذى فهم قول رسول الله ﷺ : « إن الله يحب من أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه » (١).

نحن فى حاجة إلى الإسلام فى كل أمور حياتنا لنستقر ونشعر بالطمأنينة بدلاً من الهزات المستمرة . الهزات النفسية والهزات الاجتماعية ، والهزات السياسية ، والانقلابات العسكرية، والاضطرابات المستمرة فى بلادنا الإسلامية .

---

(١) رواه الهيثمى فى مجمع الزوائد (٤/١٠١) وقال: «رواه أبو يعلى وفيه مصعب بن ثابت ، وثقة ابن حبان وضعفه جماعة » وذكره الألبانى فى سلسلة الأحاديث الصحيحة (١١١٣).

نحن فى حاجة إلى الإسلام ؛ لأنه وحده الذى يوجد التوازن والاعتدال فى حياتنا ويعطى المنهج الوسط للأمة الوسط، المنهج الذى يوازن بين العقل والقلب، ويمزج الروح بالمادة، ويجمع بين الدنيا والآخرة، بين حق النفس وحق الله تبارك وتعالى، يعطى الإنسان فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة، هو الذى يوازن بين الروحية والمادية، بين المثالية والواقعية، بين الفردية والجماعية، بين حق الفرد ومصلحة المجتمع، الإسلام وحده هو الذى يقيم هذا التوازن فى الحياة وبدون هذا سنظل نشعر بالقلق: هل نحن روحيون أو ماديون، فرديون أو جماعيون؟ سلفيون أو معاصرون؟ ونحن في الحقيقة أمة وسط، وإذا لم نقف على المنهج الوسط فسنظل نضطرب ونتأرجح ، ولا يمكن أن نثبت على حال أبداً إلا بالرجعة إلى الإسلام .

الإسلام وحده هو القادر على إنقاذنا مما نعانيه من مشكلات وويلات فى جوانب الحياة ، هذا ما ينادى به منطق الواقع ، ولقد جربنا الأنظمة والأفكار والمذاهب المستوردة فلنجرب الإسلام .

فى بعض البلاد الإسلامية أنتجت بعض تجارب للإسلام الخير الكثير، فما بالكم لو طبق الإسلام بحذافيره، وعاش الناس فى مناخ إسلامى إيجابى ، يتربى فيه الإنسان بتربية الإسلام ، ويتأثر بأفكار الإسلام ، وقيم الإسلام ، وتوجيه الإسلام ، ويعيش الناس فيه تحت إيحاء الإسلام ، وتأثير الإسلام ، وجهتهم كلها إسلامية ، ومفاهيمهم إسلامية ، ومشاعرهم إسلامية ، وقيمهم إسلامية ؟

سنجد الإنسان الصالح ، والأسرة الصالحة ، والمجتمع الصالح ؛ لأن أساس المجتمع الصالح الإنسان الصالح ، ولا يصلح الإنسان إلا العقيدة ، وإذا أصلحت الفرد صلحت الجماعة ، وإنما يصلح الفرد بصلاح نفسه ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ (١) .

منطق « ماركس » أن غيّر الاقتصاد وعلاقات الإنتاج يتغيّر التاريخ، منطقنا نحن منطق القرآن وهو المنطق الواقعى، غيّر نفسك يتغيّر التاريخ، غيّروا ما بأنفسكم يغيّر الله ما بكم ، وإنما يتغير ما بالأنفس بالعقيدة، ولو عدنا إلى الإسلام لكوّنا الإنسان الصالح الذى هو أساس المجتمعات الصالحة ، وإصلاح الحياة والمجتمعات لا يتم بقرارات ، وإنما يتم بأن تصلح أنفس الناس وأخلاقهم وضمائرهم قبل كل شيء :

لن يَصلح القانون فينا رادعاً حتى نكون ذوى ضمائرتردع

حينما جاء الإسلام كان العرب مولعين بالخمر إلى حد الافتتان، فحرّمها الإسلام بعد أن صب فى عروقهم الإيمان، فلما آمنوا ونزل قول الله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون** ﴾ (٢) ، فماذا قالوا ؟ قالوا : قد انتهينا يا رب ، قد انتهينا يا رب ، قد انتهينا يا رب .

---

(١) الرعد : ١١ . (٢) المائدة : ٩٠ ، ٩١ .

كان الواحد منهم ممسكا بالكأس فى يده قد شرب بعضاً وبقى بعض، ولما سمع بنزول الآية لم يشرب الباقى، بل أفرغ الكأس وقال : انتهينا ، وذهب إلى ما فى بيته من قرب الخمر ، فأفرغها وأراقها فى طرقات المدينة .

أمريكا حاولت أن تحرم الخمر فأصدرت لذلك القوانين والنشرات الإعلامية ، وأنفقت الملايين ، وجندت الجيش والأسطول والشرطة ، لمحاربة شرب الخمر ، وقبل ذلك: صناعة الخمر واستيرادها، وتهريبها والاتجار فيها ، ثم فشلت فى آخر المطاف، ونفس المجلس التشريعي الذى أقر التحريم أقر الإباحة، وقالوا: نحن مقتنعون بأضرارها، ولكن الشعب الأمريكى غير مقتنع بذلك ، فشلت الأساطيل وفشلت الجيوش ، وفشلت القوانين ، وفشلت الحملات الإعلامية فى أمريكا ونجح الإيمان وحده في جزيرة العرب !

فإذا أردنا أن نقيم حياة إنسانية أخلاقية فاضلة فلنعد إلى الإسلام ، فهو الذى يعطينا الوازع الذاتى ، هو الذى يصنع الضمائر الحية ، هو الذى ينشئ الإنسان الصالح ، الذى هو أساس الحياة الاجتماعية الصالحة كلها .

هذا هو منطق الواقع ، يفرض علينا أن نعود إلى الإسلام . فأى منطق احتكمنا إليه حتّم علينا الرجوع إلى الإسلام .

إذا احتكمنا إلى منطق الإيمان أوجب علينا الرجوع إلى الإسلام .

وإذا احتكمنا إلى منطق التاريخ أكدّ لنا أن لا نجاة ولا سعادة ولا انتصار ولا وحدة إلا بالإسلام ، هكذا علمنا تاريخنا .

وإذا لجأنا إلى منطق الواقع فإن الواقع يقول : إننا نعيش فى حيرة وقلق وتناقض وهزيمة وتخلف ، وإنه لا نجاة لنا إلا بالإسلام ، هذا ما يقوله الواقع ، وهذا ما تنطق به سطور الحياة كلها .

فلنفهم هذا جيداً ولنرجع إلى الإسلام، ولنؤمن به، ولكن ليس الإسلام الذى يريده الاستعمار منا، أو الذى يريده الطغاة، ليس ذلك الإسلام (المستأنَس) الذى يسير فى ركاب الظالمين، ويقبل الظلم الاجتماعى، والاستبداد السياسى، ليس إسلام المفرّطين ولا إسلام الغلاة، بل إسلام القرآن والسنة، الإسلام الأول : إسلام الصحابة ومن تبعهم بإحسان ، إسلام القرون الأولى ، الإسلام كما جاء به القرآن الكريم ، وكما دعا إليه محمد ﷺ ، وكما طبقه الجيل الربانى الأول، الإسلام الصحيح من منابعه المصفاة .

هذا هو الإسلام الذى نريده لأمتنا ، ويوم يحكم هذا الإسلام حياتنا ، ويوم نستأنف الحياة الإسلامية فى ظل هذا الإسلام الصحيح المتكامل ، فإننا سنسعد فى الدنيا قبل الآخرة ، سنُرضى الله تعالى ، وسننال إعجاب العقلاء من الناس ، وسنرضى عن أنفسنا المعذبة ، الإسلام وحده هو السبيل ، هو الصراط ، هو حبل النجاة، هو سفينة الإنقاذ ولا إنقاذ بغيره :

ومن العجائب والعجائب جمّة قرب السبيل وما إليه وصول

كالعيس في البيداء يقتلها الظّما والماء فوق ظهورها محمول

نسأل الله عز وجل أن يردنا إلى الإسلام رداً جميلاً ، وأن يعيدنا إلى هذا الدين نطبقه كلّه : عقيدةً وشريعة ، عبادةً وأخلاقا ، نظاماً وحضارة ، رابطةً وأخوة ، كما أراد الله عز وجل ، حتى نعود أمة واحدة ، أمة إسلامية كما أمر الله ، لا أمماً شتى كما أراد الاستعمار .

نسأل الله عز وجل أن يجعل يوم المسلمين خيراً من أمسهم ، وأن يجعل غدهم خيراً من يومهم ، إنه سميع قريب .. وحياكم الله أيها الأخوة ، وبارك الله فيكم ، وبارك في مسعاكم ، وأنجح عملكم ، إنه سميع قريب ، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه ...

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الفهـــرس

الموضـــوع	الصفحة
تقديـــم	٥
لماذا الإسلام ؟	٧
١ ـ منطق الإيمان يفرض علينا العودة للإسلام	١٠
٢ ـ منطق التاريخ يؤيد منطق الإيمان	١٩
٣ ـ منطق الواقع يؤيد منطق الإيمان ومنطق التاريخ	٣٠
الفهرس	٤٣